

المنظومة القيمية للمجتمع البجائي

من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني (704هـ)

(الأصول والمظاهر)

أ. زهوة أعزبي

قسم التاريخ/ جامعة محمد بوضياف/ المسيلة، الجزائر.

**The values systems of Bejaia society
through the book Onwan Adiraya to Ghobrini (d. 704h)**

Prof. ZAHOUA AZIBI

Dept. of History/Univesity Mohamed Boudhaif, MSILA; Algeria.

Abstract:

The values systems, are considered one of important criteria which greatly contributes in evaluating, and building the individual's personality, and it is scientifically important in providing about the social values and their roles.

The Bejaia society is unique in his culture. Infact the population is governed by values most of which are taken from the islamic laws. these values are reflected in the wide littérature production in the domains of philosophy, jurusprudence, sophism and intellectual. this affected highly the Yemenite individual in his behaviour.

The book by Ghobrini died in 704H illustrates well the life written of bejaia people during that period. The diversity and widness of. this book allows us to know more about life in the Bejaia society during the year 7H/13 AC.

Keywords: Values, Values systems, Bejaia society, Ghobrini, Sophism.

المخلص:

شكلت الشريعة الاسلامية الملامح العامة للمنظومة القيمية للمجتمع البجائي خلال النصف الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين، مستدلين على ذلك بالإنتاج الأدبي والفلسفي والفقهي والصوفي والفكري لعلماء بجاية، والمنعكس جليا على التفكير والسلوك.

حيث صاغت النخبة العالمية البجائية العناوين الرئيسية والعريضة لمختلف التوجهات القيمية للمجتمع آنذاك عن طريق مسارب؛ تمثلت في مجالس الدرس والتذكير والوعظ في العديد من مساجد وجوامع ورياضات وحوانيت، نشروا فيها التفكير السليم والسلوك القويم، هذا بالإضافة إلى خطتي القضاء والفتوى فعدّتا السبيل العملي لتطبيق وتفعيل القيم في المجتمع.

واعتُبر سلوك فقائها ومتصوفتها منبرا لترسيخ المثل والأخلاق السامية، وليس من المبالغة أن نقول إن المجتمع البجائي هو مجتمع صوفي، أين اعتُبرت الكرامة الصوفية إحدى المعالم التي جذبت المجتمع نحو الحركة الصوفية، حيث استخدم الولي الكرامة كأداة للدعوة والإصلاح، فتراوحت هذه الكرامات من تكثير الطعام والتعامل مع الجن وقصص الشفاعة والغفران و... .

المقدمة:

تُعرّف المنظومة القيمية على أنها جملة القيم الإسلامية الناتجة عن التراكم الأخلاقي؛ والذي اعتمده دين الإسلام في بناء عقيدته، وتعكس مسؤولية الإنسان باعتباره لم يخلق عبثاً، وإنما بوصفه مستخلفاً في الأرض، ومكلفاً بإعمارها، ومسؤولاً عن تحقيق رسالته فيها، وذلك بتنمية قدراته وتركيبه نفسه وعبادة خالقه. والقيم الإسلامية قيم مشتركة باعتبارها لا ينازع في تبوئها أحد، وهي القيم العليا التي تستقر في وجدان الإنسان، من حيث هو إنسان يؤمن بقيم الحق والإيمان والخير والعدل والجمال، ولا يتردد في مقاومة أضرارها وردعها وهي: الباطل والشرك والشر والظلم والخبث.

والمجتمع البجائي الذي كان في العصر الوسيط يتميز بثقافة خاصة -بربرية-، وتحكمه منظومة القيم الإسلامية النابعة من الشريعة الغراء والدين الإسلامي، والتي انعكست بشكل مباشر على سلوك الفرد، قد أثرت بذلك على إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهية والصوفي والفكري.

ويعتبر كتاب "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية"، لأبي العباس الغبريني (644-704هـ)¹ مرآة صادقة للمجتمع البجائي خلال القرن السابع الهجري، ومصدرا متعدد الأبعاد والموضوعات، فهو من ناحية كتاب تراجم يتعرض لحياة علماء بجاية، ومن ناحية أخرى هو معدود من كتب الفهارس والبرامج ضمن فيه الغبريني مشيخته فترجم لشيوخه وذكر مقروءاته ومروياته عنهم واصفا الحياة التعليمية والعلمية ببجاية، وفي بعد ثالث تبدو نصوصه منتمية إلى جنس كتب المناقب بالنظر إلى ما ورد في ثناياه من إشارات إلى مناقب العلماء وكراماتهم.

هذه الصفات الموسوعية التي اتصف بها الكتاب، شجعتنا على تتبع القيم التي كانت سائدة في المجتمع البجائي خلال القرن السابع الهجري، عبر مساءلته عن أصول وروافد المنظومة القيمية للمجتمع البجائي؟ وكيف ساهم الفقهاء والمتصوفة في صياغتها؟ وما هي القنوات والمنابر التي من خلالها تم تمرير بعض القيم؟ وإلى أي مدى نجح الخطاب الديني في ضبط سلوكيات إنسان المجتمع البجائي؟ وكيف تعاطت الخاصة والعامة مع المتصوفة وقصص الكرامة؟ ولماذا أقبلت العامة والخاصة على الممارسات الطقوسية كزيارة القبور والأضرحة؟

أولا : قيم المجتمع البجائي: الروافد والأصول.

تتبعكس قيم المجتمع البجائي في "مختلف العلاقات التي يرتبط بها أفراد المجتمع فيما بينهم حكما ومحكومين، أغنياء وفقراء، معلمين وجهلاء، وبفهم هذه العلاقات نستطيع التمييز بين القيم الفاعلة والمؤثرة والحاكمة لحياة الفرد والجماعة"². وفي كتاب عنوان الدراية ترجم الغبريني لثمانية ومائة (108) عالما بجائيا كان لهم الدور في صياغة المنظومة القيمية للمجتمع البجائي، بصفتهم العارفين والمبلغين للشريعة الإسلامية؛ وذلك من خلال التواصل الحاصل بينهم وبين مجتمعهم وقد اختلفت مظاهر هذا التواصل والذي يمكن إيجازه في المحطات التالية:

1- مجالس الوعظ والتذكير:

تعتبر المجالس الدرس والتذكير والوعظ من أكثر العوامل تأثيرا في المجتمع، حيث أقبل عليها الناس ببجاية للسمع والتعلم، والتشبع بالقيم الدينية الإسلامية والتي عكستها النظم التعليمية³، وقد تبوأ المسجد الأعظم الصدارة في القيام بهذا الدور، إلى جانب مساجد أخرى كانت كذلك معروفة بمجالس الدرس والذكر، كمسجد القصبه ومسجد المرجاني بحومة اللؤلؤة، ومسجد عين الجزيري. ولم تكن المساجد وحدها من تقوم بهذا الدور، بل أيضا لقاءات العلماء والصوفية والفقهاء بالحوانيت والبيوت، وحسبنا أن أحد حوانيت حارة المقدسي تسمى بمدينة العلم لاجتماع العلماء فيها، وأن الفقيه ابن عزون السلمي كان يعلم بحانوته بسوق قيسارية ببجاية بينما اتخذ كل من أبي عبد الله بن صمغان، وأبي مدين شعيب دارهما مجلسا للدرس⁴.

ويبدو أن هناك مواضع أخرى كانت رحابا للدرس والتذكير، منها "بيت الكتاب" بقصر بجاية، فكان أبو تميم بن خلفون البردوي يدرّس فيه بدليل أن ابن حماد الصنهاجي قرأ عليه كتاب "معيان العلم" من أوله إلى آخره، قراءة تفهم وتعلم فيه⁵.

1 وصفه ابن القنفذ القسنطيني (ت 810هـ) بالفقيه المحدث الجليل الشهير قاضي الجماعة ببجاية و صاحب عنوان الدراية من أعيان علماء المذهب المالكي، توفي قتلا عام 704هـ. ابن قنفذ القسنطيني: شرف الطالب في أسنى المطالب. تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، 76.

2 احمد عبد الله حريري: القيم في القصص القرآني، أطروحة دكتوراه، جامعة طنطا، 1988، ص23.

3 عبد الرحمان بن عبد الله العفيصان: أثر التحول في القيم الشخصية و الأسرية على السلوك العنيف أدى مرتكبي جرائم العنف من شباب مدينة الرياض، أطروحة دكتوراه، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2006، ص 20.

4 الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، دار البصائر الجزائر، 2007، ص 16، 99:116.

5 الغبريني: المصدر السابق، ص 95.

ومعظم الذين ترجم لهم الغبريني في عنوان الدراية قد جلسوا للدرس أو الإقراء أو الرواية والتحديث في بجاية، وأن ثلثة منهم قد انتفع من علمهم خلق كثير، فمجلس أبو تمام الوهراني كان يروق الحاضرين ويسر الناظرين وله أتباع من الجمهور، فجلوسه كان في الجامع الأعظم حيث اشتغل فيه بعلم التنكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى فكان لكلامه أثر في النفوس¹، وعلم التنكير المذكور هنا هو الوعظ الذي ينحصر بين الترغيب والترهيب بما "يلين القلوب من النصح والحث على الخير والتحذير من الشر"²

وجلس أبو عبد الله الكناني بجاية في جامعها الأعظم إماماً وخطيباً مدة ثلاثين سنة، لقي فيها المشايخ وروى ودرى واستجاز وأجاز وأقرأ واستمتع واستنفع به خلق كثير فهو أكثر من كثرت عليه الرواية عنه فيها، وكان أبو العباس المعافري عالم وقته في القراءات جلس للقراءة والرواية وقرأ عليه عالم واستفاد منه الكثير وكل من أخذ عليه يوصف بالإتقان والدراية وجودة الرواية، وتوفي عن جملة تلاميذ فضلاء وأساتيد ورغب الناس في القيام خلفه ليلة السابع والعشرين، وذلك لصدق قراءته وللتبرك به وكان أكثر ذلك في جامع القصبية³، ويبدو أن هذا العالم قد استطاع التأثير في نفوس البجائين خاصة وأنه كان يتمتع بتلك " الصفات التي يتمتع بها الواعظ في حسن الالقاء وجودة التعبيرات الجسدية وحضور القلب والتفاعل مع الخطاب"⁴

وعندما أقام ابن سبعين مدة في بجاية انتفع به أناس في فنون خاصة إذ له مشاركة في علم المنقول والمعقول وله أتباع كثيرون من الفقراء وعمامة الناس، وعكف أبو فارس بن مخلوف على التدريس فكان له درس في الغداة ودرس بين الصلاتين وآخر بين العشاءين وهذا لمدة طويلة، وعندما كبر اقتصر على درسين وكان ذلك بمسجده بعين الجزيري، والجامع الأعظم، وكان مبارك التعليم درس عليه العلم خلق كثير وانتفعوا به وكان أكثر الناس أصحاباً، وأقام عبد الحق الإشبيلي في بجاية الذي بها واحداً وثلاثين عاماً، ينشر طريقته في الوعظ والتنكير، وكان له ديوان شعر، كله في الزهد وأمور الآخرة، والذي كثر تداوله بين الناس⁵،

فهؤلاء اللذين ذكرهم الغبريني كانت مجالسهم وتذكيرهم ووعظهم فرصة لنقل وتفعيل مختلف القيم السمحة التي جاء بها الدين الإسلامي خاصة أنها كانت في المساجد وهي الأماكن التي ترتادها الخاصة والعامة على حد سواء، فما كان من هذه المجالس إلا أن تزيد في متانة العلاقة بين الدين والناس، وأن هذه المدة الطويلة التي يتولاها الشيوخ في مجالسهم تزيد من فرص التعلق بأدابهم وسلوكهم والتأثير في الحاضرين من حيث طريقة تعاملهم مع مواظبتهم ونصائحهم.

إلا أن هناك مجالس لا يقصدها العامة إنما هي مقتصرة على الخواص، ونقصد بها تلك المجالس التي تدرس العلوم في مخصصة لطلبة العلم ورواده، فمجالس بعض العلماء يحضرون خواص الطلبة ونبهاؤهم؛ فمن ذلك مجلس أبي محمد عبد الله الشريف الذي له معرفة بأصول الدين وله باع في علم العقائد، ومجلس أبي عبد الله بن صمغان الذي يجتمع إليه خواص الطلبة، وذلك في علو سقيفة داره، ويحضر نبهاء الطلبة لقراءة أرجوزة ابن سينا ودروس الطب عامة على يد ابن أندراس⁶، فهذه المجالس هي تعليمية ليست وعظية لذا اقتصر على الطلبة لأن العامة ليس لهم أن يفقهوا ما يقال لهم حول الأصول والعقيدة والطب.

وقد اشتهرت بعض هذه المجالس، حتى أصبحت وجهة يقصدها الداني والقاصي، فكان مجلس أبي عبد الله بن أبي بكر المنصور القلعي يُقصد من مختلف أصقاع البلاد، ولم يكن في بجاية من يريد قراءة علم الفرائض إلا عليه، وكانت دروس أبي عبد الله بن أمة الله في علم الأصول تميل إليها نفوس الناس وترجحها على ما سواها، وضافت مجالس بعض الشيوخ بالحاضرين، إذ بلغ عدد الطلبة في مجلس أبي الحجاج الجزائري نحو ثمانين فرداً وهذا بخلاف الغائبين ومن نسي اسمه⁷.

1 الغبريني : المصدر السابق، ص92.

2 عبد الله بن رفود السفيناني: الخطاب الوعظي مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه، ط1، منشورات مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، 2014، 29.

3 الغبريني : المصدر السابق، ص148، 149، 42.

4 السفيناني: المرجع السابق، ص35.

5 الغبريني : المصدر السابق، ص19، 110، 31.

6 الغبريني : المصدر السابق، ص91، 99، 149.

7 الغبريني : المصدر السابق، ص99، 39، 123.

ولعل أشهر من ساهم في الحياة التعليمية والوعظية والتذكيرية في بجاية، هو أبو زكريا الزواوي (ت 611هـ)، فقد جلس فيها لنشر العلم، والدعاء إلى الله وكان الغالب عليه الخوف ما يمر مجلسه إلا وذكر النار والأغلال والسعير، واستحسن الغبريني طريقته لأن الناس لا يفعلون غالباً إلا بالخوف ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفاً، وزوج طريقته التخويفية بزرع الأمل في نفوس الناس وبسط آمالهم ورجائهم في رحمة الله وسعة مغفرته وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً فالخوف يحض على العمل والأمل في لقاء الله بنفس طيبة، فانتفع الخلق على يده، وظهرت عليهم بركته، وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته وخاصة أنه عمل على بناء المساجد وبت التعليم في النواحي¹.

وإن هذا الخطاب الوعظي في التخويف والترغيب أقرب ما يكون إلى أفهام العامة وأذواقهم ويكون على أهل العلم تحريكا لدواخلهم الروحية وتحفيزاً للعمل أكثر² وبالتالي فإن طريقة الزواوي كانت أكثر الخطابات الوعظية والتذكيرية والتعليمية تأثيراً وأعلاها صدقاً لأنه يخاطب الوجدان ويعمل على تحريك المشاعر وينبه العواطف.

وتعتبر مجالس الوعظ والدرس والتذكير، فرصة لنشر سلوك ذلك العالم أو الشيخ وذلك من خلال عملية الاقتداء، فهذا أبو عبد الله القصري، كان له مجلس لتدريس العلم، وكان أصحابه أخيراً يهتدون بهديه وعملهم على كريم سعيه، وولي أبو بكر محمد اليعمري الإقراء بالجامع الأعظم فكثر الآخذون عنه والسامعون منه والمقتدون به³.

2- القضاء والفتوى:

تعتبر مؤسسة القضاء والفتوى الوسيلة المثلى لترسيخ القيم الإسلامية والتعريف بها، وذلك أن القاضي في مجلس قضاؤه يقضي بمبادئ الشريعة الإسلامية ولا يخالفها، إذ تُعرض عليه القضايا والخصومات فيسعى لتثبيت الحق ويحكم بالعدل، إذا أن العدل أحد الشروط التي يجب أن تتوفر في القاضي وهو أحد الركائز التي قامت عليها القيم الإسلامية.

أما المفتي فيطلبه الخاص العام للاستفسار عن حكم الشرع في قضية معينة، وأن معرفته بالأحكام الشرعية ضرورية فيما ينزل من نوازل في حياة الناس، والفتاوى الشرعية التي يصدرها وامتثال الناس لها يعد معرفتها هي إحدى دعائم المنظومة القيمية الإسلامية الممتثلة لقيم الدين الإسلامي.

ترجم الغبريني لعدد من القضاة العلماء كانوا قضاة أو مشاورين أو عدولاً أو مفتين، وتعتبر ولاية القضاء من أجلّ الولايات الشرعية وأرفعها شأنًا في الدولة الإسلامية، لما لها من دور في تأمين الناس على أنفسهم وممتلكاتهم، ولهذا كان الأمراء والولاة يحملون أنفسهم العناية الشديد لأجل الوصول إلى قاض كفاء، يستطيع تحمل هذه المسؤولية معتبرين أن العدل أساس الدولة وإقامة الملة⁴. وهنا نتساءل كيف كان قضاة بجاية؟ وما هي الأدوار التي لعبوها في المجتمع البجائي؟

ينبغي أن يتصف القاضي بالسياسة والصلابة، والوقوف مع الحق في وجه الظلم، وهذه الصفات اجتمعت عند القاضي أبي العباس الأنصاري وكان أبو محمد عبد الواحد لا تأخذه في الله لومة لائم، كما اتصف أبو العباس الغماري بالعلمية في القضاء مناصباً للأمراء، وعرف أبو عبد الله الأصولي بالشدة على ولاة الأمر لا يسامحهم في شيء من أمورهم ويجاهدهم بما يكرهون في حق الله وفي حقوق المسلمين⁵، وقضى أبو عبد الله محمد الخزرجي على سنن الفقهاء، وطريق الأولياء والعقلاء قائماً بالحقوق واقفاً مع الصدق معارضا للولاة فيما يخالف طريق الشرع مباننا لهم، كما حدث لأبي علي الحسن الذي حسنت سيرته واستحسن طريق فكان محبا عند الناس مشكوراً عندهم⁶.

1 الغبريني: المصدر السابق، ص 62.

2 السفيناتي: المرجع السابق، ص 61.

3 الغبريني: المصدر السابق، ص 87، 138.

4 مريم هاشمي: " مهنة القضاء في بجاية "، مجلة الناصرية، جامعة معسكر، الجزائر، ع 2013/4، ص 446.

5 الغبريني: المصدر السابق، ص 58، 97، 114، 40.

6 الغبريني: المصدر السابق، ص 144، 56.

فيبدو أن قضاة بجاية اتمسوا بالورع وهي الصفة التي رآها الإمام مالك أنها أجل صفات القاضي¹، وتخلقوا بأخلاق تؤهلهم للممارسة القضاء خاصة عدم مولاتهم لأرباب السلطة والخوف منهم إذ الخوف من الله تعالى ولا يسامحون الظلمة ولا يقبلون بالظلم وبهذا استطاعوا النفوذ إلى قلوب البجائيين بعدلهم وسيرتهم الحسنة فاستخلصوا الحقوق لأهل الحقوق وأمروا بالواجبات لمن يتعين عليهم تأديتها

إضافة إلى خطتي القضاء والفتوى، هناك خطط أخرى تعتبر معايير وجسورا لتواصل الفقهاء والعلماء مع عامة الناس. ومن هذه الخطط خطة الكتابة والوثائق والأحكام والشروط، فقد كان ابن أبي بكر المنصور القلعي موثق الوقت وعالما بالأحكام والوثائق والشروط، وعظم أبو محمد عبد المنعم الغساني عند أهل بلده لأنه كان ينشئ البياعات والخطب، واعتمد على الفقيه أبي عبد الله الغليسي في المخاطبات السلطانية إنشاء وجوبا وعليه اعتماد القضاة في التسجيلات وإليه يهرع أهل البلد فيما يحتاجون إليه من الوثائق المحكمات والأمر المستعربات².

إن هذه المساعدات التي يقدمها الكتاب والموثقون لأهل بجاية هي أصدق تعبير على ما كان عليه المجتمع من التلاحم والتعاون والتآزر بين جميع فئاته، خاصة المتعلمين الذين يحرصون على مساعدة من لا يستطيع القراءة والكتابة أو كان جاهلا بأمور الإدارة والوثائق، فما كان منهم إلا اللجوء فيما يحتاجون من أمور الوثائق إلى من يعرفها فيقدمون لهم يد المساعدة.

وإذا كان الغبريني قد وضّح لنا صورة العلماء البجائيين من خلال ترجمه لهم، فإن المجتمع البجائي آنذاك لا يقال عنه إلا كما قال عنه الفقيه ابن الطير الإفريقي، فإنه أقرأ في بجاية مدة، وعندما همّ بالرجوع إلى إفريقية، خرج متطلعا على حال أهل بجاية، فلم يشاهد إلا خيرا، ولا اطلع إلا على ما أرضاه، ولما وصل بين يدي الخلافة شكر أهل البلد، وأثنى عليهم³.

وبذلك فإن العلاقة التي جمعت علماء بجاية بكل تياراته مع المجتمع البجائي علاقة وطيدة، اتسمت بالاحترام والتبجيل والمساعدة والتكافل، مما ساعد على نشر القيم والمثل الإسلامية العليا، فكانت مجالس الدرس القناة الأولى لتبليغ القيم الإسلامية، من طرف العلماء والفقهاء، إلى عامة الناس وخاصتهم، في حين شكّل كل من علمي الفقه والتصوف الأطر النظرية للمنظومة القيمية، واعتبر سلوك فقهاءها ومتصوفتها منبرا لترسيخ المثل والأخلاق السامية، أما خطتا القضاء والفتوى فعدتا السبيل العملي لتطبيق وتفعيل القيم في المجتمع. فكيف ساهمت الحركة الصوفية في تلوين المنظومة القيمية؟

ثانيا: دور الصوفية في ترسيخ القيم:

إن معظم الذين ترجم لهم الغبريني كانوا متصوفة إلى جانب كونهم فقهاء وعلماء لهم نزعات صوفية، وقد احتوت بجاية أساطين التصوف بمختلف تياراته، وكلهم قد تصدّروا للإقراء والتدريس أو الإمامة والخطابة، وبالتالي كان لهم أتباع من العامة والخاصة، وإن المجتمع يتأثر بالشخصيات الفاعلة فيه، فعلى قدر فاعلية المتصوفة فإن المجتمع سيتلون بأخلاقهم وسلوكهم، وهنا يأتي التركيز على أهمية التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي، باعتبارها عملية بنائية لشخصية الفرد⁴، وليس من المبالغة أن نقول إن المجتمع البجائي هو مجتمع صوفي، وقد اعتبرت الكرامة الصوفية إحدى المعالم التي جذبت المجتمع نحو الحركة الصوفية، واستخدم الولي الكرامة كأداة للدعوة وإصلاح المجتمع⁵.

1 النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط5، بيروت، لبنان، 1983، ص2.

2 الغبريني: المصدر السابق، ص123، 133.

3 الغبريني: المصدر السابق، ص102، 103.

4 العقيصان: المرجع السابق، ص3.

5 إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب و الأندلس في عصر المرابطين - المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص141.

1- أثر الكرامات في السلوك الاجتماعي:

إن السبب الذي جعل الكرامة تتغلغل في نفوس الناس، هو الحال الذي كان عليه الأولياء والمتصوفة من حيث التدين والزهد، والاتصاف بمكارم الأخلاق وبذل المساعدة لكل من يحتاج إليها¹، ناهيك عن العقيدة الأشعرية وتقريرها صحة الكرامة ووجوب التصديق بها²، والغبريني نفسه في عنوان الدراية قال بها ونهى عن إنكارها وشدد العقوبة على منكريها في قوله: "وقد يقع الإنكار من ملحد، لا علم له، وحقه الإعراض عنه، وعدم الالتفات إليه، وإن زاد فيصع على وجهه عوضاً عن ثقاه، كما جمع الله له الخزي في أولاه وأخراه"³.

وإذا كانت الكرامة قد أصبحت مركباً أساسياً في ذهنية الخاصة أمثال الغبريني، فما بالك بعامة الناس الذين كان دورهم كبيراً في الترسخ لرواية الكرامة الشفوية على نطاق واسع خصوصاً في الموضوعات الآتية:

أ- التعامل مع الجن:

كانت العامة تتناقل حكايات الجن؛ حتى لأنها صارت من أبرز موضوعات الرواية الشفوية؛ فالعامة، وفي كل مكان تستهويها أخبار الجن وتملك على حسها⁴، فقد اشتهرت علاقة أبي علي المسيلي مع الجن حيث كانت تقرأ عليه جموع مؤمني الجن في الجامع الأعظم في الثلث الأخير من الليل، وكان الجن المؤمن يغسل له إناء وضوئه لمس الجن الكافر له، وكان أبو الفضل الحرّالي يدرّس الجن في زاويته وكانوا يزودونه بالخبز والتين⁵.

فعلامة متصوفة بجاية ولم تقتصر بوسطهم الاجتماعي الإنساني الذي هو علم الشهادة، والتي تميزت بأشكال من التبجيل والتعاون والتكافل، إنما تعدته إلى عالم الجن الذي هو من عالم الغيب وهذه العلاقة التي تربط بين الجن والمتصوفة هي علاقة دراسة ومدارسة، عطاء ومقابل، فتعليمهم لم ينصب على الطلبة والعامة بل حتى الجن المؤمن رغب بأن يكون متعلماً على يد هؤلاء فيكونوا في سلسلة الإقراء والإسناد، ومن جهتهم الجن عملوا على توفير الحماية والازداد لأسانذتهم من الإنس.

ب- التعامل مع الموتى وقصص الغفران:

أثرت الشفاعة بعمق في بنية المجتمع الإسلامي، فالرسول صلى الله عليه وسلم يشفع لأمته، والأولاد لأبائهم، والمؤمنون الصالحون لمن قصرت بهم أعمالهم مما يدل على امتداد التواصل والرحمة والرغبة في مشاركة الآخرين في النعيم وكان ما يرى عليه المؤمنون في الدنيا من تعاون وبر والشفاعة لبعضهم البعض في استحصال الحقوق يمتد إلى الآخرة⁶، وقد أخذت الشفاعة منحى آخر في المجتمع البجائي، وهو ما نلاحظه من خلال تكرار قصص رؤية الأموات في الأحلام في حال سيئة فإذا دفن بجواره رجل صالح تغفر سيئاته وتبديل أحواله.

وحسبنا أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي كان جالساً بإزاء قبر الشيخ أبي علي المسيلي متبركا به، فإذا بفارس يسأله عن قبر الشيخ أبي علي، فأخبره أن له صاحباً توفي ببجاية، فرآه في حال لا تسرّ، وبعد مدة رآه على حال حسنة، فسأله عن السبب فقال له: "توفي أبو علي المسيلي ببجاية، ودفن بباب أمسيون، وكان الرجل دفن بجبل الخليفة، قال: فغفر الله لما بين ضفتي المدينة فكنت في إحدى الضفتين فغفر لي"⁷.

وكذلك قصة المرأة التي دفن بجوارها رجل صالح، فشقّعه الله تعالى في كل من بجوار قبره من جهاته الأربع مسافة أربعين ذراعاً فكان قبرها فيمن حازها، فغفر الله لها، ومن كرامات أبي عبد الله العربي أن رجلين كانا متصاحبين وكان أحدهما يرى صاحبه

1 الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 7 و6 هـ / 12 و13م - نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، الجزائر، دار الهدى، 2004، ص 161.

2 بوتشيش: المرجع السابق، ص 141.

3 الغبريني: المصدر السابق، ص 24.

4 أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 1994، ص 82.

5 الغبريني: المصدر السابق، ص 14، 18، 81.

6 العمري: المرجع السابق، ص 57.

7 الغبريني: المصدر السابق، ص 18.

في حالة تسوؤه وفي بعض الليالي رآه على حال حسنة فقال له: "ما هذه الحال؟" فقال: "غُفر لي" قال: "وبماذا؟" قال: "إن سيدي أبا عبد الله العربي تعثر، فدميت أصبعه، فقال: اللهم ما وهبت لي من أجر، فأني وهبته لجماعة الموتى فغفر الله لجميع من في الناحية وأنا من جملتهم"¹.

يستفاد من هذه الشواهد التاريخية حول قصص الشفاعة والغفران أنها أضحت من مميزات الذهنية للفرد والمجتمع زمان ومكان الدراسة، حيث اعتقدوا أن أعمالهم لا تكفيهم للدخول إلى الجنة ونيل مرضاة الله وأن كل الذي أسلفوه من الخير والبر لا ينجيهم من عذاب الله، فلجؤا إلى التشفع بالأولياء والصالحين من خلال الرغبة في الدفن بجوارهم لتتألمهم "بركة الجوار"² فيغفر لهم ويأمنوا عذاب القبر وعذاب النار.

ج- بركة الولي وتكثير الطعام:

إن الدور الريادي الذي لعبه شخص الولي جعله المرشح لأن يكون بمثابة الزعيم الروحي في المجتمع³، إذ يلجأ إليه العامة والخاصة لقضاء حوائجهم، وذلك باستخدام الدعاء والكرامة. وقد ذكر الغبريني عددا من متصوفة بجاية كانوا مستحيبي الدعاء، فكان أبو الحسن الأزدي مستجاب الدعوة، وله كرامات يستحسن ذكرها، وأكثر ما كان الناس يقصدونه ليدعو لهم فيعترفون ببركة دعائه، وكان ابن محجوبة السطيفي مستجاب الدعوة أيضا⁴.

وشكّل الفقر ونقص الغذاء هاجس إنسان العصر الوسيط بشكل عام البجائي بشكل خاص، ولأجل التخلص من هذا الهاجس استعان الناس بالأولياء، فكانت كراماتهم في توفير أو تكثير الطعام، فقد استعان رجل بأبي الحسن الزواوي فأمدّه بأربعة أمداد من القمح واشترط عليه الطهارة أثناء تناوله فكفاه هذا الزاد حتى موسم الحصاد⁵، ومما تدل عليه هذه الحادثة ارتباط البركة بالطهارة حيث جعلت الطهارة شرط من شروط عدم نفاذ الكمية القليلة وتكثيرها وهي محاولة ترسيخ لأحد أهم القيم الجمالية الجسمانية المتعلقة بالطهارة والنظافة.

وعندما خرج القرطبي مع أصحابه لصيد السمك، لم يصطادوا شيئا، لكنه بعد صلاة الظهر، قال لهم الآن يفتح لكم، فرأى أصحابه الحيتان تتراعى عليهم في الزورق، حتى امتلأت⁶، ومن كرامات أبي الحسن الحرّالي أن بجاية أصيبت بجفاف عظيم فرمق السماء ببصره ودعا الله ورفع يديه وكان وقت الآذان فلم يختم المؤذن، حتى تراكمت السحب ونزل المطر كأفواه القرب وروي الناس⁷. ومن هذه الشواهد نستنتج أن الكرامة الصوفية قد شكلت الفحوى البارز في عمل التراجم، الذي أنجزه الغبريني، فهي "تعكس شخصية برمزيته في التعبير عن مكبوتات المجتمع، وهي مادة دسمة لمعرفة مشاكل المجتمع وآماله، وهي مجال خصب للوقوف على العلائق"⁸.

د- التبرك وزيارة القبور:

إن زيارة القبور والأضرحة والتبرك بها غدت من العادات اللصيقة بذهنية إنسان العصر الوسيط الإسلامي، فقد ألقت المناقب وفق أهداف دقيقة توخّى أصحابها بلوغها وشحنوها بطاقة روحية وما تركيزهم على شخصية الولي ومجاهداته وخوارقه وكراماته وتفوقه على القوى الأخرى، إلا بواعث هدفوا من خلالها إلى تحقيق عامل الإجماع الشعبي للولي⁹، وأن هذه الرمزية التي أحييت بالصوفي

1 الغبريني : المصدر السابق، ص 24،25.

2 بلقاسم الطباي: الموت في مصر والشام طقوس الموت وعاداته في العهد المملوكي، ط1، دار التونسية للنشر، تونس، 2014، ص 27.

3 سمية مزدور: "الأوبئة والمجاعات في المغرب الاوسط(588-927/1192-1520م)" مذكرة ماجستير مرقونة، جامعة قسنطينة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والآثار، 2008-2009، ص 149.

4 الغبريني : المصدر السابق، ص 50،52.

5 الغبريني : المصدر السابق، ص 52.

6 الغبريني : المصدر السابق، ص 61، 80.

7 الغبريني : المصدر السابق، ص 73.

8 بونابي الطاهر 2005: « أهمية المخطوطات المناقبية في كتابة التاريخ الاجتماعي و الثقافي و الفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط »، المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران، ع2-3، ص 124.

9 بونابي: المرجع السابق، ص 126.

والولي في حياته تبعته بعد وفاته واعتبر قبره وضريحه الوسيلة لتحقيق مآلات زائره هذا على الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن لا يبرز قبره، حتى لا يفتن به أحد.

أولى الغبريني اهتماما في وصف المقدس ومنه قبور الصوفية أضرحتهم وركز بشكل ملفت على القبور التي يستجاب عندها الدعاء فمنها قبر الشيخ أبي مدين شعيب بالعباد بتلمسان؛ فقبره معمور مشهود وحوض مرور والدعاء عنده مستجاب وقبر الشيخ أبي مروان اليحصبي ببونة وقبر معروف الكرخي ببغداد¹.

ونجد قبورا أخرى مزار، يُتبرك بها، كقبر أبي عبد الله السجلماسي بقلعة بني حماد، وقبر أبي العباس المتوسي بمليانة فهو مما تلتبس البركة بشهوده ويظفر زائره بمقصوده، أما في بجاية فجد قبر أبا الحسن الأزدي من باب الجديد، وقبر ابن علي المسيلي بباب أميسون ورغم أن قبره مجهول في قبور هناك ثلاثة أو أربعة ولا يعلم أيهم من بينها إلا أن الغبريني قال: "لكن المتبرك يتبرك بجميعةا ليوافق المقصود منها"²، وبلغ الحد بقبر عبد الحق الإشبيلي المتبرك به أن الطلبة يقرأون تأليفه عند قبره، وفيه ختم الغبريني قراءة كتاب "العاقبة" على يد شيخه أبي علي الأركشي³.

إن التبرك كان سائدا في أوساط فقهاء بجاية، فأبو زكريا الزواوي -الذي يعدّ قبره من المزارات- أقام رباطه خارج باب المرسي بجوار ضريح أبي عبد الله العربي ملتصقا بركته، في حين كان الفقيه الوغليسي يحب الجلوس إزاء قبر أبي علي المسيلي يتبرك به، والذي كان مزارا لأشخاص من خارج بجاية قصدوه من إفريقية، وأن الفقيه أبو الحسن علي الزواوي عند دنوّ أجله قال لأولاده: "لا عليكم مهما أصابكم أمر أو عارض، فأتوا إلى قبوري، واذكروا شكواكم، وأسألوا الله، يفرّج عنكم". وعلّق الغبريني على هذا قائلا: "وما زال أولاده بعده، مهما عرض لهم عارض، يفعلون ذلك، فيجدون نفعه"⁴.

فهذه الممارسات التي دأب عليها هؤلاء الفقهاء والأولياء قد لفت صداها في أوساط مريدتهم وطلبتهم فالملفت أن نوعية الزوار وموقعهم من الزيارة أكسبوا لحديثهم وللمزارات مصداقية ومشروعية فسلوكيات الناس تتأثر بالضرورة بنوعية المخاطب ودرجة مصداقيته ونوعية الزوار من فقهاء وعلماء وأصحاب السلطة من شأنها أن تساهم في دحض مقولة الديانة الشعبية كما يبين قيمة الأولياء والأموات لدى الفئات المثقفة التي تعترف بهم وتزورهم وتزور فضائهم، وهذا ما يعكس استمرار حضور الولي في حياة الناس بعد وفاته وانتفاعهم بسلطته الروحية وخوارقه ومكاشفاته وبالتالي يجسد أهمية الدعاء عنده والتبرك به عاكسين بسلوكهم في الذاكرة والمتخيل الجماعيين.

الخاتمة:

ما يقال -في الختام- إن المجتمع البجائي كغيره من المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط، حكمته منظومة من القيم والمبادئ الإسلامية، كان للعلماء والفقهاء والمتصوفة والأولياء الدور البارز في تركيزها، وقد تلوّنت بعلمهم وسلوكهم وأخلاقهم، واستطاعوا تفعيلها في أوساط المجتمع بمختلف تراتبياته، عن طريق مجالس الدرس والذكر، ومجالس القضاء والفتوى. وقد استخلصنا من خلال كتاب: "عنوان الدراية" لأبي العباس الغبريني، أن المجتمع البجائي وبكثرة متصوفته وأوليائه وصلّاحه كان مجتمعا ذو قيم صوفية، كانت فيه الكرامة وقصصها أحد دعائمه، كما لعب الولي، حيا وميتا، سلطة لا يستهان بها، وظلت هذه الأخيرة حيّة في الذاكرة الجماعية البجائية.

1 الغبريني : المصدر السابق، ص 11.

2 الغبريني : المصدر السابق، ص 60، 88، 52، 15.

3 الغبريني : المصدر السابق، ص 20.

4 الغبريني : المصدر السابق، ص، 25، 18، 61 .

المصادر:

- الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- ابن قنفذ القسنطيني: شرف الطالب في أسني المطالب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

النهاهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط5، بيروت، لبنان. 1983.

*** المراجع:****1- الكتب**

- بوتشيش إبراهيم القادري: المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة، بيروت 1993.
- بونابي الطاهر: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هـ / 12 و13م- نشأته، تياراته، دوره الإحتماعي والثقافي والفكري والسياسي-، دار الهدى، الجزائر، 2004 .
- الطباي بلقاسم: الموت في مصر والشام طقوس الموت وعاداته في العهد المملوكي، ط1، دار التونسية للنشر، تونس، 2014.
- العمري أكرم ضياء : قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي. الدوحة: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1994.
- السفياي عبد الله بن رفود:الخطاب الوعظي مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه، ط1، منشورات مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، 2014.

2- الدوريات

- بونابي الطاهر (2005): « أهمية المخطوطات المناقبية في كتابة التاريخ الاجتماعي و الثقافي و الفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ». المجلة الجزائرية للمخطوطات.جامعة وهران، ع2-3، صص 111- 131 .
- هاشمي مريم (2013): « مهنة القضاء في بجاية ». مجلة الناصرية. جامعة معسكر، ع4، صص 445- 464.

3- الأطاريح

- حريري احمد عبد الله : القيم في القصص القرآني، أطروحة دكتوراه ، جامعة طنطا، 1988.
- العفيصان عبد الرحمان بن عبد الله: أثر التحول في القيم الشخصية والأسرية على السلوك العنيف أدى مرتكبي جرائم العنف من شباب مدينة الرياض، أطروحة دكتوراه، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2006.
- مزدور سمية: الاوبئة و المجاعات في المغرب الاوسط(588-927هـ/1192-1520م)، مذكرة ماجستير مرقونة، جامعة قسنطينة، كلية الآداب والاعلوم الانسانية، قسم التاريخ و الاثار، 2008-2009.